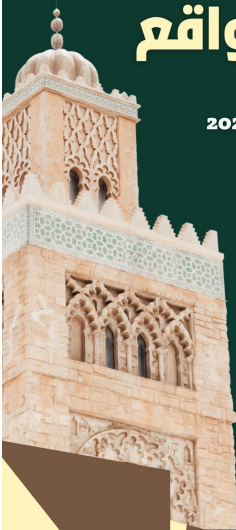




إدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن
**جهود علماء الغرب الإسلامي
في تنزيل النص القرآني على الواقع**

بتاريخ: 22 و21 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و16 نوفمبر 2022



توظيف تنزيل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي من خلال تفسيره الجامع لأحكام القرآن

ط.د/ سلسبيل شنوف، إشراف: د/ محمد تمزغين

مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية
قسم العقائد والأديان-كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر1

s.chennouf@univ-alger.dz

m.timezghine@univ-alger.dz



مقدمة

لقد جاءت الأحكام التشريعية الربانية موافقة لمصلحة الخلق ودافعة للمفاسد عنهم، ولتحقق هذا المقصد يلزمنا فهم سليم لنصوص الشرع واستنباط قويم وتنزيل حكيم، على اختلاف الأمكنة وتغير الأزمنة والأشخاص والأحوال والأوضاع، كل ذلك من أجل الاهتداء بالنص القرآني في كل نازلة، أو وضع مستجد، أو معرفة حكم، أو إبطال فعل. وعُدَّ التنزيل على الواقع من أدق وأهم ما يخلص إليه العالم، وهو أعلى درجة من الفهم والاستنباط.

وقد اهتم الفقهاء والمفسرون في كل زمان بهذا الجانب بحسب طبيعة الفترة المكانية والزمانية فقد تفاوت التطبيق من مكان إلى آخر، وهذا ما ظهر في تفاسير المغاربة حيث أولوا اعتناء بفقہ النوازل والمستجدات الطارئة على عصرهم. من هنا تظهر أهمية معرفة هذا التطبيق لأن دراسة وتتبّع توظيف العلماء للنصوص وربطها بأحداث واقعيهم، يُلمّهم العلماء والدعاة بكيفية ربط الناس بالقرآن وتقريب الوحي من حياتهم، ليزدادوا فهما وتعلقا واستشعارا لخطاب الله في أي وضع أو حادثة تطرأ عليهم. فكيف كان توظيف أهم مفسري الغرب الإسلامي -الإمام القرطبي- للنص القرآني مع ما عاشه من وقائع ونوازل؟

سأعرّف في هذا البحث الموجز بالإمام القرطبي ومنجه في تفسيره، وأركز على إبراز نماذج من توظيف الإمام القرطبي لتنزيل النص القرآني على أحداث ومستجدات عصره.

الدراسات السابقة:

-تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة من خلال المنار ومجالس التذكير والظلال. عبد العزيز الضامر، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى-كلية الدعوة وأصول الدين.

-فقه الواقع في ضوء القرآن الكريم: أصول وتطبيقات، بركة حسن المبروك، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية-كلية أصول الدين، السودان. 2009م.

-تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، يحيى بن محمد ززمي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الرابع، السنة الثانية.

اشتمل البحث على مقدمة ذكرت فيها أهمية البحث ومضمونه وأهم الدراسات السابقة، ومبحثين المبحث الأول تعريف بالقرطبي وتفسيره الجامع لأحكام القرآن والمبحث الثاني نماذج

من توظيف القرطبي لتزليل النص القرآني في النوازل والمستجدات، المطلب الأول نماذج من نقده وتقويمه لواقعه، والمطلب الثاني نماذج من وصفه وتوجيه لواقعه، ثم خاتمة بها أهم النتائج والتوصيات.

خطة البحث:

مقدمة.

المبحث الأول: التعريف بالقرطبي وتفسيره.

المبحث الثاني: نماذج من توظيف تزليل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي. خاتمة.

المبحث الأول: التعريف بالإمام القرطبي وتفسيره.

المطلب الأول: التعريف بالإمام القرطبي.

أ. اسمه ونسبه ومولده:

• اسمه ونسبه: هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرَح بسكون الراء والحاء المهملة، الخزرجي الأنصاري القرطبي الأندلسي¹.

• كنيته: أبو عبد الله، ولقبه بعضهم بشمس الدين².

• مولده: لم تذكر المصادر التي ترجمت للقرطبي شيئاً عن تاريخ ولادته، ولكن رجح بعض من ترجم له أن ولادته كانت في بداية القرن السابع بقرطبة³، وذلك اعتماداً على بعض الأحداث التي ذكرها القرطبي في بعض كتبه والتي توحي بأنه حينها كان صغيراً لا يزال يطلب العلم، مثل ما ذكره في قصة مقتل والده والتي أشار إليها في تفسيره، فقال: "أغار العدو-قصمه الله- صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وست مئة والناس في أجراهم⁴ على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قُتِلَ والذي رحمه الله"⁵.

ب. نشأته وطلبه للعلم:

نشأ في مدينة قرطبة التي كانت قلعة من قلاع العلم، وفيها نشأ جهاذة من العلماء في مختلف الفنون، كما انتشرت المدارس والمكتبات العلمية في أرجاءها آنذاك، واستفاد من جلّ علماء بلده، في شتى الفنون ولذلك نجده في كتبه كثيراً ما يتعرض لذكرهم، فيقول: "سمعت شيخنا، وأخبرني قراءةً عليه"، وكان ذلك بقرطبة وهو في مرحلة الطلب. أسرته كانت فقيرة، والده كان يشتغل بالزراعة وكان يباشر في حصاد بعض المحاصيل بنفسه يوم قُتِلَ مع غيره من

¹ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ/1968م، ج:2، ص:210. جلال الدين السيوطي، طبقات المفسرين، ت: علي محمد عمير، مكتبة وهبة، ط:1، 1396هـ/1976م، ص:92. شمس الدين محمد بن علي الداودي، طبقات المفسرين، راجعها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1403هـ/1983م، ج:2، ص:69.

² مشهور حسن محمود سلمان، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، دار القلم، دمشق، ط:1، 1413هـ/1993م، ص:13.

³ بضم أوله وسكون ثانيه، وضم الطاء المهملة أيضاً، والباء الموحدة، وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها.

⁴ معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت:فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج:4، ص:325.

⁵ الجرين: موضع اللُّبِّ، وقد يكون للتمر والعنب، والجمع أجرنة وجُرْن. لسان العرب، ج:13، ص:87.

⁵ مشهور حسن، الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، ص:13-15.

المسلمين على أيدي النصارى بقرطبة سنة 627هـ، كما ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: جڭگڭ جڭ جڭ جڭ گڭ چآل عمران:129⁶.

وقد أقبل القرطبي منذ صغره على طلب العلم، وقضى جلّ وقته في مدارسته وتلقيه من العلماء ولم يقتصر على الأخذ من شيوخه فقط بل كان يداوم النظر في الكتب ويقراً على أهل العلم وقد أجاز به بعض هذه الكتب كما حدّث بذلك عن نفسه في بعض كلامه: "وقد رَوينا ذلك بالإجازة"، ويقول أيضاً: كنت بالأندلس قد قرأت أكثر كتب المقرئ الفاضل أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان⁷،⁸.

ج. رحلاته:

بقي القرطبي بقرطبة حتى سقوطها، و خرج منها سنة 633هـ ، ثم انتقل منها إلى مصر التي كانت محطاً لكثير من العلماء المسلمين، ولم تذكر المصادر تجولات القرطبي داخل الأندلس، وهل انتقل داخلها؟، وهل أخذ عن غير شيوخ قرطبة؟، أم أن توفر العلماء والمشايخ المبرزين مع عناءه وكده في علمه لم يستح له إلا البقاء فيها والأخذ من شيوخها؟. إلا أن هناك لمحات في كتبه تبين أنه بعد رحيله من قرطبة إلى مصر مرّ بعدة مدن منها: الإسكندرية⁹، الفيوم¹⁰، المنصورة¹¹، القاهرة¹²، منية بني الخصب¹³.

د. شيوخه وتلاميذه:

(1) شيوخه:

• شيوخه بالأندلس:

- أبو سليمان ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري.
- أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعري.
- أبو جعفر أحمد بن محمد القيسي، المعروف بابن أبي حجة.
- أبو الحسن علي بن قُرطال بن عبد الله بن محمد الأنصاري، القرطبي.

⁶ نفس المرجع السابق، ص:32.

⁷ هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني، القرطبي المقرئ صاحب التصانيف، ولد سنة (371هـ)، وكان أحد الأئمة في علم القراءات، مات في النصف من شوال سنة(444هـ). الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1419هـ، 1998م، ج:3، ص:211.

⁸ مشهور حسن، الإمام القرطبي شيخ أئمة المفسرين، ص:33.

⁹ هي مدينة عظيمة من مدن مصر اختلفوا في أول من أنشأها، فقيل هي إرم ذات العماد، ويقال أن الإسكندر والقرمّان أخوان بني كل واحد مدينة بأرض مصر وسمّاها باسمه. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج:1، ص:183.

¹⁰ بالفتح وتشديد ثانيه ثم واو ساكنة وميم، هي ولاية غربية من ولايات مصر، وهي في منخفض الأرض كالدارة، ويقال أن النيل أعلى منها. الحموي، معجم البلدان، ج:4، ص:286.

¹¹ هي بلدة أنشأها الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة، ورباط بها في وجه الأفرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة 616هـ الحموي، معجم البلدان، ج:5، ص:212.

¹² هي مدينة بجنب الفسطاط يجمعها سور واحد وهي اليوم المدينة العظى بمصر، أول من أحدثها جوهر غلام المعز أبي تميم معد بن إسماعيل الملقب بالمنصور الحموي، معجم البلدان، ج:4، ص:310.

¹³ ضبطها الحموي منية أبي الخُصيب، بضم ثم السكون ثم ياء مفتوحة، مدينة كثيرة الأهل و السكن على شاطئ النيل في الصعيد الأدنى. الحموي، معجم البلدان، ج:5، ص:218.

• شيوخه بمصر:

- أبو محمد عبد الوهاب بن رواج _ واسمه ظافر_ بن علي بن فتوح بن حسين الأزدي، القرشي، الإسكندراني، المالكي، الجَوْشَنِي.
- أبو الحسن بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة اللّخمي، المصري، الشافعي، المعروف بابن الحُميري.
- أبو العباس ضياء الدين أحمد بن عمر الأنصاري، الأندلسي، القرطبي، يعرف بابن المزين.
- أبو علي الحسين بن محمد بن محمد بن عمروك البكري، النيسابوري، ثم الدمشقي.

(2) تلاميذه:

- ابنه شهاب الدين أحمد. قال السيوطي(911هـ)¹⁴: "وروى عنه _أي عن القرطبي_ بالإجازة: ولده شهاب الدين أحمد"¹⁵.
- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي، العاصمي، الغرناطي.
- أبو بكر محمد بن كمال الدين أبو العباس أحمد بن أمين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن الميمون الميموني القسطلاني، المصري، الفقيه، المالكي.
- ضياء الدين أحمد بن أبي السعود بن أبي المعالي البغدادي المعروف بالسطريجي. هـ. آثاره ومؤلفاته: يمكننا أن نقسم آثاره إلى قسمين:
 1. الكتب المطبوعة، منها:
 - الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان. وهو أهم كتبه، فقد أثنى عليه الكثير من العلماء.
 - التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، وهو كتاب مشهور، كتبه في مجلدين، جمعه من الأخبار والآثار وما يتعلق بالموت والحشر والجنة والنار والفتن، وقد ذكره المصنف في تفسيره في مواطن كثيرة.
 - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، يعالج قضية العقيدة والإيمان بالله وبأسمائه وصفاته.
 - التذكار في أفضل الأذكار. طبعه أول مرة ونشره محمد أمين الخانجي، وخرّج أحاديثه وعلق على حواشيه أحمد الغماري. وموضوعه هو القرآن الكريم، جمع فيه أربعين حديثاً في فضل القرآن وقارنه ومستمعه.
 2. الكتب المخطوطة، منها:
 - الانتهاز في قراءة أهل الكوفة والبصرة والشام وأهل الحجاز.
 - أرجوزة، جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وشرحها .

¹⁴ هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي، جلال الدين، ولد سنة 849هـ ، إمام حافظ مؤرخ أديب نشأ في القاهرة يتيمًا، له نحو600 مصنف، توفي سنة 911هـ. الزركلي، الأعلام، ج:3، ص:301.

¹⁵ السيوطي، طبقات المفسرين، ص:92.

- منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد.
- اللُّمَع اللُّوَلُويَّة في شرح العشرينات النبوية.
- رسالة في ألقاب الحديث.
- شرح النقصي لما في الموطأ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- و. وفاته: توفي رحمه الله ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة واحد وسبعون وستمائة، بمدينة بني خصيب ودُفن بها.¹⁶
- ز. ثناء العلماء عليه:

- قال الداوودي(945هـ)¹⁷: "كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف"¹⁸.

- قال ابن العماد(1089هـ)¹⁹: "كان إماماً علماً، من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيّد النقل"²⁰.

- قال الذهبي(ت:1397هـ)²¹: "كان رحمه الله من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهد في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، وبلغ من زهده أن طرح التكلف، وصار يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها"²².

المطلب الثاني: التعريف بتفسير القرطبي.

1. اسم الكتاب، ونسبته لمؤلفه:

- اسمه: ذكر الإمام القرطبي اسمه في مقدمة تفسيره فقال: "وسمّيته الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، جعله الله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ، ومن أراد بمَنته، إنه سميع الدعاء، قريب مجيب، أمين"²³.
- نسبته لمؤلفه: أجمعت المصادر التي ترجمت للإمام القرطبي على أن له كتاباً في تفسير القرآن الكريم، غير أنهم اختلفوا في ذكر اسمه، فهناك من اكتفى بذكر أن له كتاباً في التفسير

¹⁶ المقري، نفع الطيب، ج: 2، ص: 213.

¹⁷ هو محمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداوودي، المالكي، شيخ أهل الحديث في عصره، مصري، من تلاميذ جلال الدين السيوطي، توفي سنة 945هـ الزركلي، الأعلام، ج: 6، ص: 291.

¹⁸ الداوودي، طبقات المفسرين، ج: 2، ص: 69.

¹⁹ هو عبد الهي بن أحمد بن محمد، أبو الفلاح ابن العماد الحنبلي الدمشقي، الملقب بالعكري، مؤلف شذرات الذهب، وشارح المنتقى، توفي سنة 1089هـ ابن الغزي، ديوان الإسلام، ج: 3، ص: 320.

²⁰ ابن العماد، شذرات الذهب، ج: 7، ص: 585.

²¹ هو محمد بن حسين الذهبي، عالم من علماء الأزهر، عُرف ببحوثه القيمة في مناهج المفسرين، اغتيل في شهر رجب سنة 1397م، محمد خير رمضان يوسف، تكملة معجم المؤلفين، تكملة معجم المؤلفين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط: 1، 1418هـ/1997م، ص: 474.

²² محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج: 2، ص: 336.

²³ محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ت: عبد الله ابن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط: 1، 1427هـ/2006م، ج: 1، ص: 8.

كصاحب طبقات المفسرين حيث قال: "مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان"²⁴. وهناك من ذكر عنوان الكتاب موجزا، كصاحب الأعلام حيث قال: "من كتبه الجامع لأحكام القرآن، عشرون جزءا، يعرف بتفسير القرآن"²⁵.

2. منهجه في التفسير:

بين الإمام القرطبي منهجه في التفسير في مقدمته فقال: "فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل بها أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه منيتي، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبين ما أشكل منها بأقوال السلف، ومن تبعهم من الخلف"²⁶.

وطريقته العامة في التفسير هي إيراد تفسير آية أو أكثر في مسائل مرتبة حسب مباحث، يتمثل مجملها في:

- ذكر فضل السورة أو الآية وما ورد في ذلك من أخبار، وربما ذكر فضل السورة قبل بدئه بالمسائل.

- ذكر سبب النزول.

- تفسير الآية بما ورد فيها من آثار وهو ما يُعرف بالتفسير بالمأثور وبما تحتمله الألفاظ من معاني في اللغة، مستشهدا على ذلك بأشعار العرب، وأقوالهم.

- ذكر الأحكام الفقهية المتعلقة بالآية، مع ذكر الاختلاف فيها بين الأئمة، مع إيراد أدلة كل منهم. وكثيرا ما يستطرد أثناء ذكر هذه الأحكام، فربما خرج إلى مالا صلة له بالتفسير.

- ذكر ما يتعلق بألفاظ الآية من اشتقاق، وتصريف، وإعلال، وإعراب، مع إيراد أقوال أئمة اللغة فيها أحيانا.

- ذكر وجوه القراءات، المتواترة منها وغيرها.

إلى غير ذلك من ترجيح لقول، أو تصحيح لحديث، أو تعقب لمصنف، أو ردّ لأقوال بعض الفرق، أو تنبيه على سلوك غلاة المتصوفة.²⁷

لم يكتف الإمام القرطبي ببيان منهجه في التفسير وإنما بين شرطه ومجمل ما ذكره:

- إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها.

- أضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه.

- تفسير آيات الأحكام، والإسفار عن معناها بمسائل ترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمن كل آية تتضمن حكما فأكثر مجموعة مسائل يتبين فيها ما تحويه من أسباب النزول، والغريب،

²⁴ السيوطي، طبقات المفسرين، ص: 92.

²⁵ الزركلي، الأعلام، ج: 5، ص: 322.

²⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 1، ص: 7.

²⁷ انظر: عبد المحسن التركي، مقدمة تحقيق تفسير القرطبي، ص: 10.

والحكم. وإن لم تتضمن حكماً ذكر ما فيها من تفسير وتأويل.²⁸

المبحث الثاني: نماذج من تنزيل النص القرآني في النوازل والمستجدات عند القرطبي.

يتطلب تنزيل النص القرآني على النوازل والمستجدات معرفة حقيقية بالواقع وحيثياته، وخصوصياته وملابساته، ليتسنى تنزيل الحكم بكيفية تحقق مقاصد التشريع وتقرّب خطاب الله من واقع الناس؛ لتقويم أخطائهم وتوجيه مواقفهم.

وقد أجاد ابن القيم -رحمه الله- لما قال: "والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات، ودلائل الحال، ومعرفة شواهد، وفي القرائن الحالية والمقالية، كفقّهه في كليات الأحكام: أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم الناس بطلانه ولا يشكون فيه، اعتماداً منه على نوع ظاهر لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله".²⁹

ثم أشار إلى نوعين من الفقه، لا بد للحاكم منهما: "فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع".³⁰ وهكذا كان صنيع الإمام القرطبي حيث وظّف كثيراً من الآيات القرآنية في تقويم الناس من ناحية العبادات، ونقد الاعتقادات الباطلة وتوجيه الأحداث والمستجدات التي طرأت في عصره، وفي هذا المبحث سأعرض نماذج من هذا الأمر.

المطلب الأول: نقد وتقويم القرطبي للواقع وفق الآيات.

في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: 249.

شرح القرطبي مقصد الله عز وجل من قوله "كم من فتنة قليلة" الآية، أنها تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه. ثم علّق قائلاً: "هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أدينا".³¹

وفي ربطه هذا ببيان أن انهزام العدد الكبير أمام اليسير من العدو الذي حصل في عصره، إنما سببه الأعمال القبيحة وعدم الصدق مع الله عز وجل.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المائدة: 58.

علّق القرطبي في المسألة الثامنة من تفسير هذه الآية على من يُخطأ في كيفية الآذان في وقته ووصفهم بالجهال، قائلاً: "وحكم المؤذن أن يترسل في آذانه، ولا يطرب به كما يفعله اليوم كثير من الجهال، بل وقد أخرجه كثير من الطعام والعوام عن حد الإطراب، فيرجعون فيه الترجيعات، ويكثرون فيه التقطيعات حتى لا يفهم ما يقول، ولا بما به يصول. روى الدارقطني

²⁸ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 1، ص: 8.

²⁹ ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ت: نايف بن أحمد الحمد، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - إبراهيم بن علي العبيد، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، ط: 4، 1440 هـ - 2019 م، ج: 1، ص: 6.

³⁰ المرجع السابق، ج: 1، ص: 7.

³¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 4، ص: 245.

من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الأذان سهل سمح فإن كان أذانك سهلا سمحا وإلا فلا تؤذن)³².

في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: 59.

بين القرطبي لجوء أهل زمانه للكهنه والعرافين خصوصا في مصر، قائلا: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين، والكهان لاسيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمراهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنه والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال"³³.

وهذه التفاتة مهمة من القرطبي خصوصا في هذه الآية التي تؤكد أن الله عز وجل وحده عالم بالغيب، وأن هؤلاء المنجمين إنما يتسببون في ضياع الدين والمال والوقوع في الضلال.

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ...﴾ التوبة: 34.

شرح القرطبي المقصود بالأخبار والرهبان وذكر الأقوال فيما كانوا يفعلونه باسم الدين قائلا: "والأخبار علماء اليهود. والرهبان مجتهدو النصارى في العبادة." بالباطل " قيل: إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذي ذكره سلمان الفارسي عن الراهب الذي استخرج كنز، ذكره ابن إسحاق في السير. وقيل: كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع. وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، كما يفعله اليوم كثير من الولاة والحكام"³⁴.

في القول الثالث بأن الأخبار والرهبان كانوا يرتشون في الأحكام، أسقط القرطبي هذا الفعل على الولاة والحكام في زمانه.

المطلب الثاني: وصف وتوجيه القرطبي للواقع وفق الآيات.

في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ...﴾ البقرة: 216.

ذكر القرطبي قول أبي عبيدة في الآية: "عسى" من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم. ثم علق قائلا: "وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأسر وقتل وسبي واسترق، فإننا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!"³⁵.

³² المصدر السابق، ج: 8، ص: 69.

³³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 8، ص: 404.

³⁴ المصدر السابق، ج: 10، ص: 181.

³⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 3، ص: 417-418.

يظهر لنا من تعليق القرطبي ربطه لأحداث الأندلس، وأن استيلاء العدو عليها كان نتيجة كره الناس للقتال والجهاد وفرارهم من المواجهة.

في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ آل عمران:118. بين القرطبي في ضوء هذه الآية عدم جواز استكتاب أهل الذمة، قائلا: "فلا يجوز استكتاب أهل الذمة، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم".³⁶ ثم أسقط هذا الأمر على حال الناس في عصره مع أهل الكتاب وكيف أهم خالفوا بذلك أمر الله عز وجل، قائلا: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء".³⁷

في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ الفرقان:20.

في المسألة الرابعة من تفسير هذه الآية أورد القرطبي أحاديث تدل على أن ابغض الأماكن هي الأسواق، ثم علق عليها ببيان حكم دخولها، قائلا: "ففي هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر: كره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيها لهم عن البقاع التي يعصى الله فيها. فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وإنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته ووليته".³⁸

في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَيْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ الأحقاف:20.

بين القرطبي حدود الاستمتاع بالطيبات في الحياة الدنيا وهدي النبي صلى الله عليه وسلم - وأصحابه في ذلك، قائلا: "والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد، طيبا كان أو قفارا، ولا يتكلف الطيب ويتخذة عادة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد على أصلا، ولا يجعله ديدنا. ومعيشة النبي صلى الله عليه وسلم معلومة، وطريقة الصحابة منقولة، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته".³⁹

ربط القرطبي في هذه الآية بين الاستمتاع الزائد بالطيبات وتفشي الحرام والفساد في عصره لأن اعتياد النفس على تحصيل كل ما تشتهي يدفع بها إلى الكسب الحرام فيصعب الخلاص وينعدم الإخلاص.

³⁶ المصدر السابق، ج:5، ص:274.

³⁷ المصدر السابق، ج:5، ص:274.

³⁸ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:15، ص:388.

³⁹ المصدر السابق، ج:19، ص:208-209.

خاتمة

في ختام البحث ذكر أهم ما خلُصت إليه من نتائج:

-الإمام القرطبي من المفسرين المغاربة الذين أكثروا من تنزيل الآيات القرآنية على الواقع.
-يرجع إكثار القرطبي من ربط النص بالواقع إلى اهتمام علماء قطره بفقاه النوازل والمستجدات الطارئة في عصره.

-اهتم القرطبي برصد وتسجيل وتصحيح ما وقع من أحداث في بلده وفي رحلاته في ضوء الهدي القرآني.

-أولى القرطبي مسلك الاستنباط والربط والتحليل أهمية كبرى فخلص إلى معالجة واقعه وفق الآيات القرآنية.

التوصيات:

-حث العلماء المفسرين لكلام الله في أي مكان ينشطون فيه على الاهتمام بجانب ربط الناس بالقرآن عن طريق قضية التطبيق على الواقع.

-يجب ربط النص القرآني بواقع الإنسان، لأن كلام الله عز وجل موافق لكل عصر، وفيه إصلاح لكل وضع، وتصحيح لكل فهم خاطئ للشرع، وعلاج كل مشكل في أي عصر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، مشهور حسن محمود سلمان، دار القلم، دمشق، ط: 1، 1413هـ/1993م.
- تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1419هـ، 1998م.
- التكملة لكتاب الصلة، الحافظ ابن الأبار، ت: د.عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1994م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت: عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط: 1، 1427هـ/2006م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ت: د، بشار معروف ود، السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1415هـ/1985م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي الدمشقي، دار ابن كثير، دمشق، ط: 1، 1412/1991هـ.
- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، ت: علي محمد عمير، مكتبة وهبة، ط: 1، 1396هـ/1976م..
- طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي الداوودي، راجعها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1403هـ/1983م.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ت: نايف بن أحمد الحمد، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير - إبراهيم بن علي العبيد، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، ط: 4، 1440هـ/2019م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، ت: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ/1968م.